وداع

جميل لبثينة

للدكتور احمد زكي ابو شادي

كان (جميل) من شعراء الحب العذري الثابتين في عهد عبد الملك بن مروان ، وقد أحب حسناء من بنات قومه (بني ربيعة) تدعى (بثينة) ، فكان يشبّب بها . وجرياً على عادة العرب في ذلك الوقت امتنع أبوه عن تزويجه منها لاشتهار حبهما ، فاقترنت بغيره . ولكنه بقي على حبه لها ، ولاقى في سبيل ذلك عنتاً كبيراً حتى تعرّض لاهدار دمه ، كما اضطر الى الفرار الى الشام ، وأخيراً ألى الرحيل إلى مصر . وفي هذا المشهد الشعري الرائي نراه يودّع محبوبته بعد أن استحال عليهما استئناف اللقاء في أمن من الرقباء وأصبحت حياتهما في خطر أكيد.

جميل — (بثينة)! لا أرضى الوداع، وإن أكن ... لأرضى دمائي أن يراق لديك ؟
إلى (مصر) أمضي، إن تركتك نائياً ... وما لي بحفظ الموميات اربها !
(بثينة)! هل ترضين موتي مكرراً ؟!

بثينة (مقاطعة)... ... ... (جميل)! حرام أن تعذبني هكذا!

جميل — إذنْ عذبيني في جوارك فهو لي ... نعيم ولا تقضي إلى العذل والشكوى
ففي (مصر) تحيى الميتين رموسهم ... ولكن لمثلي الموت كالعيش في البلوى

بثينة — وأين سبيلي يا (جميل) ؟ !

جميل — ... ... أفي الهوى عزوفك عني ؟ !

بثينة (مقاطعة) ... ... بل أذوب غراما !
لئن خانتْ الدنيا ... أمينة على الحب كالأيام الرؤوم دواما
وفي الحضر لن ألقى سوى خلصن وليس سوى الحب النقي شفيعي
أعيش بدين الحب رغم قطيعتي على مضض حتى أردَّ الأعاديا !

جميل — إذن خلِّ عيني من عذابي حبيبتي ! ولا توسليني للفناء قريبا !
إذا الشمس ألقت نورها لم يضع سدى ولو مات أحياء الغرام جديبا !
وأما أنا . . .

بثينة — ... ... الله يعلم أنني أقدِّيك ، لا من يرتضيك شهيدا
(مقاطعة) ويا ليتني أدري ....

جميل — ... ... أجل يا (بثينتي) فمارَّ ملامي حين أنت إلهتي
(مقاطعاً) مقدسة في طيِّ قلبي ، وحبها عطورُ دمٍ حيٍّ وحلمُ شفاة
ولكنَّ (أيابثن) الحبيبة ، ما الذي يحول عن التفكير في صحبتي فورا ؟
ولو شئت أودعتُ القصائد مهجتي على الرمل ألوانا ، وأطلقتها سكرى
وكانت لهذا الحسن أوفى وكائبٍ إلى مصر حيث الرملُ أزهر وافترا
وحيث مياه (النيل) تجري روافصاً يفازلُ بعضٌ بعضها هائما نحرا !
هلمي حياتي !

بثينة — ... يا (جميل) كفى كفى ! أتنقذ بالأحلام حبًّا لنا ضاعا ؟
جميل — وكيف يضيعُ الحب في صدر عاشقٍ سيفرق معنى الخلق روحاً وإشعاعا
(مقاطعاً) وكيف وهدي كالنسيم الذي سرى على مرِّ أجيالٍ نشيد خلودِ ؟
بثينة — أنسيت أني زوجُ من لن يفوتني ولو عشت في (المرِّيخ) فوق جبالِ ؟
فكيف ذهابي في اصطحابك هكذا إلى (مصر) ؟

جميل — ... ...في (مصر) الأمانُ المحقَّق
فانَّ بنيها للمروءة قدوةٌ وإنَّ بنيها بالمحبة أخلقُ
أحنَّ إليها مستجيباً لدعوةٍ تغنَّى بها الصبحُ الجميل المرقرقُ
تعطر من أنفاس (مصر) ونيلها ومن وحيها الضافي لنا يتألقُ
ولو أنني لم أحتذ قبلاً بحسنها

بثينة — (جميل)! (جميل)! رحمة منك! إني أعاني من الفجيع والحسرات
(مقاطعة) فلا شيء كالحرمان نار جهنم!

جميل — ... ... إذن ساعفي يا مهجتي عبراتي!
(مقاطعاً)

بثينة — ولكنما الحرمان أشهى لمهجتي من العار لا يرضاهُ طبعُ نبيل
(مقاطعة مديثها) وقد يبدع الحرمان روحاً جميلة أحبُّ وأولى في الهوى (بجميل)
وداعاً حبيبي هاهي الشمس ودّعت ولاحت بأطياف المغيب شجوني
وداعاً! فإني باقياً غيرُ لحظةٍ تصاحبني حتى لقاء منوني
وأنظرها حولي مراثي لوعةٍ وألثام أشجانٍ وسوت جفوني!

جميل — وداعاً غرامي أصبح اليأس مرشدي وقد كان قبلا هاجري وخصيمي
(متعباً) وداعاً! كأنا قد خلقنا لفرقةٍ وأنا دُمي تشقى بكفٍ لئيم
وداعاً حياتي! واسمحي لي بلثمةٍ على قدم يقفو خطاه نعيمي
وداعاً قبيل الليل! فالليلُ قسوة وإن كنت شمساً فوق كل جهنم!

بثينة — وداعاً حبيبي! سوف أبقى وفيةً بروحي وفاء الزهر للغارس الحاني
(متعبة) فما أنا إلا أنت مهما مضت بنا تصاريف دنيا لا تدين بإيمان
وداعاً حبيبي ولتكن بعض أدمعي دموعك وأكفف دمعك الغالي لعاني
وداعاً فما لي غير صومعة الأسى عزاء! وداعاً يا ملاكي وانساني!

جميل — وداعاً حياتي! سوف أنظر دائماً إليك بمرآة السماء مراراً
وسوف أناجي كل حسن يحوطني لعلَّ به معنى لديك توارى
وداعاً! وداعاً! هذه غاية المنى وداعاً!

بثينة — ... ... وداعاً يا (جميل)!

جميل — ... ... وداعاً!

(النهاية)